دراسة عادات الطعام وآداب المـــائدة
فى الوطن الـــعربى

دكتوره/ عليـــاء شـــكرى(*)

أولا ـــ مقدمة فى دراسة عادات الطعام وآداب الطعام :

من الواضح ان هذه الدراسة تندرج تحت أحد الاقسام الرئيسية فى علم الفولكلور ، واعنى دراسة العادات الشعبية . وقد عرفت كتب المدخل فى علم الفولكور العادة بأنها ظاهرة اساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الانسانية، وانها حقيقة اصيلة من حقائق الوجود الاجتماعى . فنصادفها فى كل مجتمع ، تؤدى الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة ، عند الشعوب البدائية ، كما عند الشعوب المتقـــدمة ، عند الشعوب فى حالة الاســـتقرار وفى حالات الانتقال والاضطراب والتحول . وهى موجودة فى المجتمعات التقليدية التى يتمتع فيهـــا التراث بقوة قاهرة وارادة مطلقة ، كما أنهـــا استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها فى ظل مجتمعاتنا الحديثة المتطورة ، وابتكرت لذلك عديداً من الاشكال والصور الجديدة التى تناسب العصر . ولذلك فمن الخطأ الكبير الاعتقاد بأننا لايمكن أن نلتمس العادات الشعبية (أو العادات الاجتماعية) الا فى التقاليد العتيقة المتوارثة فحسب ، كما أنه من العبث الاقتصار عند محاولة تفسيرها على ارجاعها الى صورها القديمة وأصولها الغابرة فالعادات الشعبية ظاهرة تاريخية ومعاصرة فى نفس الوقت . وقـــد تبدو لنـــا فى بعض الاحيان خلوا من المعنى . ولكن من الخطأ التماس معناها فى صـــورتها الاصلية والقديمة فقط. فهى تتعرض لعملية تغير دائم يتجدد بتجدد الحياة الاجتماعية واستمرارها وهى فى كل طور من أطوار حياة المجتمع تؤدى وظيفة وتشبع حاجات ملحة . ومن البديهى أنهـــا فى ادائها لهذه الوظيفة فى مجتمع معين (محـــدود بزمان معين ومكان معين) ترتبط بظروف هذا المجتمع وواقعه(١) .

وسنرى فيما يلى تفصيلا كيف أن هذا التعريف ينطبق بكل تفاصيله على عادات الطعام وآداب المـــائدة . فهى جزء أساسى راسخ من التراث التقليدى المتوارث فى كل مجتمع . ومع انه مستمد من التراث ، الا أنه يعيش فى تفاعـــل كامل مع الواقع الحى للمجتمع ، يتطور ويتجدد بتجدد الحياة فى هذا المجتمع .

(*) أستاذ علم الاجتماع ـــ بكلية البنات ـــ جامعة عين شمس .

ولا يمكن ان تتكامل أمامنا الصورة عن تراث اى مجتمع وعن خطوط التغير فيه بدون ان نتعمق فى دراسة عادات الطعام فيه ، فهى فى نظرنا تفوق فى اهميتها عادات دورة الحياة (الزواج والميلاد والموت) لان الاخيرة لا تتكرر فى حياة الفرد سوى مرة او مرات قليلة . اما عادات الطعام فتلازمه مرات فى اليوم الواحد ، ولا تنقضى ساعة من يومه دون ان يمر بتجربة تنطوى على طعام أو شراب ، داخل بيته أو عند مضيف له .. الخ . وسوف استعرض بالتفصيل وجوه اهمية دراسة هذا الموضوع بالذات .

ولكنى اود قبل ذلك ان اؤكد ان عادات الطعام لا تقف قائمة بمفردها ولا يمكن أن تدرس بمعزل عن الاطار العام للمجتمع الذى تمارس فيه . وهى فى هذا تتشابه مع كل عناصر التراث الشعبى . ولكن الذى أود ابرازه بالنسبة لعادات الطعام بوجه خاص أنها تتداخل مع عناصر التراث الشعبى الاخرى . وسوف نرى ان مظاهر أهمية دراسة موضوع عادات الطعام وادابه المائدة انها تتقاطع وتتداخل مع عناصر شتى من التراث ومع موضوعات قد تبدو للوهلة الاولى بعيدة الصلة بموضوع من صميم ميدان العادات الشعبية . فعادات الطعام كما راينا وثيقة الصلة بالجانب المادى من التراث لان الطعام كما سنرى مكون من عناصر مادية ويعد بادوات ويحفظ فى أوانى ويقدم فى أوان وعلى موائد .. الخ .

كما تقودنا دراسة عادات الطعام الى ميدان الادب الشعبى على اتساعه فاعداد بعض مواد الطعام كالعمل أمام الفرن أو على الرحاية .. الخ مجال لترديد بعض الاغانى الشعبية التى تحمل مضمونا خصبا ، وتستهدف التخفيف من مشقة العمل ، وتزجية الوقت الطويل الذى تستغرقه تلك العمليات . ثم ان هذا الميدان يرتبط ببعض الظواهر المتميزة التى تجد تعبيرا عنها فى الامثال الشعبية : فالاكول والخجول والمراة المجتهدة وتلك الخاملة ذات المهارة الضئيلة فى اعداد الطعام .. الخ . كل تلك صور يسجلها المثل الشعبى ، وتتردد عند المناسبة التى ترتبط بها تدعيما لوجهة نظر قائل المثل فى تقييم الموقف المعاش .

اما الارتباط بين موضوع عادات الطعام وميدان المعتقدات الشعبية فقوى ومتشعب . ذلك أن كثيرا من الآداب التى نصادفها انما ترتكز على طائفة من القيم المتأصلة فى الثقافة الشعبية (كالعلاقة بين الصغير والكبير — وبين الرجل والمراة ، والكرم ، والبخل .. الخ .) وهى أمور سوف تلفت دراسة عادات الطعام نظرنا اليها بأقصى قدر من الوضوح . ثم ان كثيرا من العادات والممارسات المتبعة تعكس ايمانا من ممارسها بالحسد والعين الشريرة ... وما الى ذلك ، وهى ايضا أمور ستبدو بجلاء حتى من نظرة سريعة

الى أسئلة الدليـــل الذى وضعناه لدراسة عادات الطعام وآداب المـــائدة . اما الارتباط القوى بين موضوعنا والدين فســـوف نخصه بالذكر فى اكثر من موضع من هذه الورقة وقد أكدته كل الدراسات السابقة بما لم يعد معه فى حاجة الى مزيد من الايضاح .

ونجد مظهرا آخر للارتباط بميدان المعتقدات الشعبية فى العلاقة الوثيقة بين بعض الممارسات الغذائية وميدان الطب الشعبى ، فهناك ممارسات تتم لاعتبارات الفوائد والخصـــائص الطبية ، واكلات تفضل واصـــناف تكره ، ونصائح توجه ، وما الى ذلك من اعتبارات تمليها اعتبارات المصلحة والفائدة من وجهة نظر التراث الطبى الشعبى فى المجتمع .

تلك نبذة سريعة تؤكد لنا مدى الشمول والاتساع الذى يتميز به موضوعنا فى داخله وترابطه مع شتى عناصر التراث الشعبى الاخرى(٢) .

تلك هى المكانة العامة لموضوع عادات الطعام وآداب المائدة كجزء من ميدان دراسة العادات الشعبية الواسع . وسأنتقل فيما يلى الى استعراض بعض مظاهر أهمية دراسة عادات الطعام .

ثانيـــا ـــ أهمية دراسة عادات الطعام وآداب المـــائدة :

١ ـــ يلاحظ المتأمل لموضوع الطعام أن المأكولات التى يتناولها الناس فى المجتمع تنتهى فى العادة بانتهاء الوجبة التى تعد لهـــا ، أو تنتهى بعد بضعة ساعات أو أيام قليلة حسب قدرتها على مقالبة عوامل الفســـاد والتحلل . ولكن القاعدة العامة انهـــا تختفى ، بحيث لا يبقى منهـــا أى أثر يمكن أن ينتقل من جيل الى جيل . فنحن لا نعرف الآن ماذا كان آباؤنا أو اجدادنا يأكلون الا من مصادر ثانوية ، أى عن طريقة حديثهم هم ووصفهم للطرق التى كانت متبعة فى اعداد أصناف الطعام المختلفة . أما تلك الأصناف نفسها ، اما مذاقها ، أما شكلها فلا نستطيع أن نراها بأنفسنا رؤية مباشرة . وتظل معلوماتنا عنها كما قلت معلومات من مصادر ثانوية . والجزء الأكثر دواما من مكونات الطعام هو الادوات والاوانى المستخدمة فى اعدادها ، وهذه نقطة سنناقشها فى موضع لاحق من هذه الفقرة .

لهذا فان تلك السمة الاساسية لموضوع الطعام تفرض علينا ضرورة الاهتمام المركز بدارسة كل ما يتصل به من عادات وادوات . لأن تلك العادات لا تمارس الا فى وجود الطعام « وعلى الطبيعة » ـــ ان صح القول . واذا كنا نضع ترتيب أولويات لموضوعات دراسة التراث الشعبى ، فلابد أن يأتى

موضوع عادات الطعام وآداب المائدة على رأس تلك القائمة للاعتبارات التى أوضحناها ، والتى تدفعنا الى أن نولى أكبر اهتمام للموضوعات الاكثر عرضة للاختفاء والضياع .

٢ ــ هناك نقطة أخرى تمثل عنصرا من عناصر اهمية موضوعنا ، ذلك أن ظهور أصناف جديدة من الوان الطعام وظهور مظاهر جديدة من آداب الطعام يترتب فى كثير من الاحوال على تأثير الاتصال بثقافات اخرى . حقيقة أن الابتداع والتجديد ــ من داخل الثقافة ــ يلعب كما نعلم دورا فى تجديدها وتطويرها ، ولكن النقل والاستعارة يلعبان دورا بارزا بوجه خاص فى ميدان الطعام ، فتدخل الى الثقافة أصناف جديدة لم تكن معروفة وادوات ومعدات لم تكون موجودة ، فيتغير عالم الطعام تغييرا جوهريا نتيجة ذلك الاتصال . ومن البديهى أن اختفاء بعض العناصر والسمات المحلية قد يترتب هو الآخر على الاتصال بثقافات أجنبية ، وذلك بطريق مباشر أو غير مباشر . الطريق المباشر أن نأخذ عن تلك الثقافات استهجانها لبعض تلك الالوان أو العادات ؛ فنتخلى نحن عنها . وغير المباشر أن يؤدى استعارة أصناف وعادات جديدة الى « ازاحة » عناصر تقليدية أو أصناف تقليدية كانت موجودة فى الماضى ، ولم نستطع أن نثبت وجودها وتدعم استمرارها فى وجه تيارات التجديد .

وتتبعنا لعملية الثبات والتغير (التغير بزرع عناصر جديدة ، أو التخلى عن عناصر تقليدية قديمة) سوف يكشف لنا بجلاء خطوط الاتصال الثقافى أو الاحتكاك الذى تم بين ثقافتنا التى ندرسها والثقافات الاخرى القريبة منها او البعيدة . ولعل استعراض بعض الوان الطعام وبعض عناصر الآداب المتصلة بها فى منطقة كالحجاز سوف تكشف لنا تيارات التأثير الثقافى التى تعرضت لها تلك المنطقة على امتداد تاريخها البعيد والقريب(٢) . فى الماضى تعرضت لتأثيرات ثقافات شرقية (آسيوية وافريقية واوروبية) ، واليوم تتعرض لثقافات شرقية وغربية (علاوة على السابقة الثقافات الاوربية والامريكية) والتحليل المفصل سوف يضع لنا النقط على الحروف فى هذا الموضوع .

٣ ــ لا يخفى على أحد ممن يطالع أحد المصادر الدينية التى تعرضت بشىء من التفصيل لموضوع عادات الطعام وآداب المائدة مدى الاهمية التى يمثلها هذا الموضوع من وجهة النظر الدينية . ونضرب مثالا على ذلك بمؤلف الغزالى الشهير : « احياء علوم الدين » (الذى خصص كتابا عن العادات لدراسة هذا الموضوع وايضاح وجهة النظر الدينية فيه) .

٤ ــ تعد عادات الطعام وآداب المائدة ــ كما يدل على ذلك كل سؤال من أسئلة الدليل ــ ظاهرة اجتماعية وثيقة الاتصال بالظواهر الاجتماعية الاخرى . فهى انعكاس لوضع الاسرة الطبقى اى مكانتها على سلم التدرج الاجتماعى القائم . وهى فى كثير من الاحوال صدى لنوع المهنة التى تمارسها الزوجة أو يمارسها رب الاسرة ، أو كليهما معا ، حيث يتدخل ذلك فى تحديد عدد الوجبات ، ومكوناتها ، وطبيعة الوجبة الرئيسية وتمييزها عن الوجبات لاخرى .. الخ . وعادات الطعام من أكثر الظواهر حساسية لعوامل التغير التكنولوجى الدائر فى المجتمع . فهى تستفيد منه وتتأثر به سلبا أو ايجابا . وتوضح أسئلة الدليل ضرورة الكشف عن مظاهر الأخذ بالمستحدثات التكنولوجية فى اعداد الطعام وحفظه .. الخ . كما أن التجديد التكنولوجى قد عمل على اختفاء أصناف وبعث أصناف .. وهكذا .

هذه مجرد اسئلة تكشف لنا هذا البعد الاجتماعى الهام لموضوعنا وهو فى نفس الوقت المحور الذى ستدور حوله كل تحليلات هذه الدراسة فى المستقبل . من أجل ذلك جاء التنبيه فى أكثر من موضع من مواضعها الى ضرورة ارتباط هذه الظاهرة أو تلك بالوضع الطبقى الاجتماعى للاسرة ، او بمهنة رب الاسرة او ببعد الرجل والمرأة (فيما يختص بأطعمة للرجال واخرى للنساء ، وكذلك مهمة اعداد الطعام ، وتقديمه .. الخ .) أو ببعد الصغار والكبار .. الخ فنحن وان كنا قد أبرزنا الاشارة فى مواضع معينة الى هذا البعد ، الا اننا نؤكد على الجامع ضرورة مراعاته فى كل ما يجمعه من معلومات او يسجله من ملاحظات(٤) .

٥ ــ ومن وجوه أهمية موضوعنا كثرة تكرارها بالمقارنة بكل عناصر التراث الشعبى الاخرى . حيث المحت سابقا الى أن عادات دورة الحياة قد تتكرر مرة واحدة فى حياة الانسان ، وقد يشهدها هو (بالنسبة لغيره) بضع عشرة مرة ، ولكن عادات الطعام تتفوق على كل هذا من حيث كثافة ممارستها . فهى تمارس مرات ومرات فى اليوم الواحد ، وهى لذلك حاضرة فى فكر وأسلوب كل شخص يعيش فى مجتمع .

٦ ــ كما ان من الابعاد الهامة لهذا الموضوع أنه يعد اداة هامة للكشف عن الفروق البدوية الحضرية من ناحية والريفية الحضرية من ناحية اخرى . فكثير من أصناف الطعام وما يرتبط بها من عادات وآداب مميزة بطبيعتها للبيئة الريفية ؛ وهناك أخرى مميزة للبيئة الحضرية . فالخبز فى القرن داخل البيت ظاهرة ريفية خالصة ، وطحن الحبوب داخل البيت ، وتربية الطيور فى البيت .. الخ . كل ذلك ظواهر ريفية متميزة . فى مقابل هذا نجد اعتماد

البيئة الحضرية على شراء الخبز من السوق ، وشراء الاطعمة نصف المصنعة أو الجاهزة ، والاعتماد على المعلبات وعلى اللحوم المحفوظة والمثلجة .. الخ. وبين البيئتين — كما هو معروف بداهة — تفاعل حى دائم لا ينقطع ، حيث نرى أن البيئة الريفية اخذت تعرف الاعتماد الجزئى على الخبز الجاهز وعلى اللحوم المحفوظة والمثلجة .. الخ . وبفضل التقدم التكنولوجى خذت بعض الاصناف التقليدية تستعيد حياتها من جديد كالرقاق والشعرية .. الخ. والشخص الريفى الذى يعيش فى المدينة نستطيع أن نستدل على ثقافته وعلى مدى تمسكه بهـا من واقع معرفتنا بعادات طعامه ونظام وجباته .. الخ . ولذلك تتبنى هذه الدراسة — ضمن منظورها السوسيولوجى العام — الاهتمام ببعد البـدو والريف والحضر من خلال استخدام مؤشر عادات الطعام وآداب المـائدة .

٧ — ان اهتمامنا بدراسة هذا الموضوع الهـام اصبح واجبا وطنيا وضرورة علمية بسبب ما تعرض له هذا الموضوع فى الماضى من اهمال ومن تقصير من جانب الدارسين . اذ يعد الاهتمام العلمى بدراسة عادات الطعام وآداب المـائدة من الظواهر الحديثة فى علم الفولكلور والعلوم الثقافية بصفة عامة . ذلك ان هذا الميدان قد حرم فترة طويلة من اهتمام الدارسين الجادين ، وترك دون تطوير فى الوقت الذى انطلقت دراسات الادب الشعبى وغيرها من موضوعات علم الفولكلور . فما هو سبب فى ذلك ؟

هناك بعض الاسباب ذات الطبيعة العلمية ، كما أن هناك اسـبابا اجتماعية عامة ، لا ترجع الى ظروف تطور علم الفولكلور أو الى تقصير من جانب المشتغلين بهذا العلم . ففيما يتعلق بعلم الفولكلور نعرف أن هذا العلم قد بدأ فى اول مرة كدراسة للأدب الشعبى ، وظل يفهم كذلك لأمد بعيد وفى كثير من البيئات العلمية التى نشـأ فيها . وطغت دراسة الادب الشعبى فى تلك البيئات على دراسة بقية عناصر التراث الشعبى الاخرى . ولم يستطع أن يلحق بميدان الادب الشعبى — ولكن بفارق كبير — سوى ميدان العادات والتقاليد ، ثم معه او بعده بقليل ميدان المعتقدات الشعبية . وظل ميدان الثقافة المـادية والفنون الشعبية من المجالات التى لم تحظ بنصيبها الحق من الدراسة ومن الاهتمام الا فى وقت متاخر .

ومع ذلك لم يستطع موضوع عادات الطعام — وهو فى اساسه عنصر من عناصر العادات — أن يلحق بالتقدم فى ميدان دراسـة العادات والتقاليد الشعبية . فدراسة الطعام والغذاء لهـا طبيعة خاصة لم تساعد على تحقيق

تلك الاندفاعة . فالمواد الغذائية وأصناف الطعام بطبيعتها عناصر قصيرة العمر لا تدوم اكثر من ساعات أو أيام . ولذلك لم تلق أى اهتمام من جانب أصحاب المتاحف الاثنولوجية أو الفولكلورية . ومن ثم لم يجد رجل الفولكلور من تراث الماضى فى هذا الموضوع ما يمكن أن يحفزه الى التخصص فيه والانكباب عليه . ولم يكن هناك من سبيل امام من يود التعمق فى هذا الباب من ابواب العادات الشعبية سوى أن يتجه بكليته الى الحاضر .. الى الواقع المعاش لكى يرصد حركته ويعرف اتجاهاته ويسجل ما يراه ليتيحه لنفسه وللآخرين كى يكملوا تحليله وتحقيق كل جوانبه .

وهنا نصل الى تبين صعوبة اخرى من الصعوبات التى عاقت تقدم البحث فى هذا الميدان . ان الرواد الاوائل لعلم الفولكلور لم يكونوا ليجدوا فى انفسهم الشجاعة الادبية الكافية لطرق هذا الموضوع على اعتبار انه من « موضوعات النساء » .. كل الاخباريين من النساء ، وكل الوصفات لابد لها من عقلية نسائية تسجلها وتحللها وتزن كل جزئية فيها بميزان النقد السليم لاننا كما يعلم القارىء لا نأخذ فى الدراسة الانثروبولوجية أقوال الاخبارى كما هى بغثها وسمينها دون تحيل وتمحيص ولا دون مراجعة وتدقيق . وهكذا ظلت تلك النقطة بمثابة عقبة فى سبيل تطوير دراسة هذا الموضوع الهام من موضوعات تراثنا الشعبى ، ليس فى العالم العربى أو فى مصر فحسب ، بل فى العالم أجمع .

٨ ــ اشرنا من قبل فى اكثر من موضع الى ان دراسة مثل هذا الموضوع الهام تكشف جوانب كثيرة وحاسمة من ظاهرة التغير الثقافى والاجتماعى . ويمكننا بفضل عديد من الدراسات الموتوجرافية أن نشيد مثل هذه النظريات على نطاق محدود (اقليم او منطقة معينة داخل المجتمع مثلا) . وبفضل اجراء مزيد من الدراسات على عديد من المناطق ، يمكن توسيع نطاق تلك التعليمات النظرية بحيث نستطيع تشييد نظريات متوسطة المدى فى التغير الثقافى والاجتماعى . وهكذا يتسع نطاق الدراسات فيتسع نطاق الشواهد وصولا الى نظريات عامة (ربما على مستوى الوطن العربى ككل) فى التغير .

٩ ــ ان من شأن تطبيق دراسة أطلسية عن عادات الطعام وآداب المائدة ان يتسع نطاق التغطية الذى نستمد منه شواهد الدراسة ؛ بحيث تتحدد بدرجة اكبر من الوضوح مناطق الابتداع (أو التجديد) Innovation والفروق الاقليمية ، والعلاقات بين البادية والحضر وبين الريف والحضر ،

والمناطق الهامشية .. الخ . وذلك هو هدف الدراسة فى علم الفولكلور بصفة عامة ، ولكن موضـــوع عادات الطعام وآداب المـــائدة يحقق هـــذه الرسالة بشكل عظيم الكفاءة كبير الدقة .(عن أطالس الفلكلور انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الطبعة الرابعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ الفصل العاشر : « الاتجاه الجغرافى وأطلس الفولكلور » ص ٢٢١ — ٢٨١) .

١٠ — تعد دراسة موضوعنا هذا بمثابة مؤشر هام قادر على القاء الضوء على تطور مكانة المراة فى المجتمع . فالمراة هى البطل الذى لا ينافس فى ميدان اعداد الطعام وتقديمه وتلقين الصغار آداب المائدة . وهى التى تقوم بالدور الاكبر فى تنفيذ التجديدات التى تطرا على هذا الميدان ، وهى التى تؤثر بدخولها الى ميدان العمل العام (خارج البيت) باحداث تعديلات هامة على حياة البيت ومن فيه ، وفى مقدمة ذلك عادات الطعام وآداب المائدة . وهناك عديد من أسئلة الدليل تستهدف القاء الضوء على هذا الجانب من جوانب الموضوع . فالمراة العاملة — فى الريف أو فى الحضر — لايمكن ان تجلس الى الفرن تخبز الخبز ، وهى لا يمكن أن تقوم بطحن الحبوب بنفسها ، وهى تقلع — سواء صرحت أم كابرت — عن اعداد الاصناف المعقدة أو التى يستغرق اعدادها وقتا طويلا (اللهم الا فى المناسبات او فى ايام الاجازات !) ، وهى لابد ان تطلب العون من أولادها ومن زوجها .. الخ . ولا نجد موضوعا ملموسا يمكن ان يقدم لنـــا كل هذه التفاصيل عن تطور مكانة المراة فى البيت وفى المجتمع مثل موضوعنا هذا الذى ننوى دراسته بواسطة هذا الدليل .

١١ — هناك نقطة اخيرة تتصـــل بالقيمة التطبيقية العملية لمثل هذه الدراسة ، وهى نقطة مفيـــدة لكل من يتساءل عن قيمة بحث علمى معين ، خاصة من بحوث الدراسات الانسانية . ذلك لاننا نرى ان اسهام مثل هذه الدراسة فى القاء الضوء على حياة الناس وعلى ثقافتهم وتطورها هو فى نفسه قيمة كبرى للدراسة .

ولكننا مع ذلك نقول لمن يتساءل عن القيمة التطبيقية العملية : ان اجراء هذه الدراسة سيوصلنا الى فهم العادات الغذائية لمن أجريت عليهم الدراسة . وهذا أمر له أهميته على المســـتوى الوطنى العام لانه سيكون بمثابة الخلفية أو الاطار الذى نبنى عليه تخطيطنا الغذائى ووضع السياسية المثلى لترشيد هذا الغذاء . وهى كلها أمور ستكون لهـــا قيمة كبرى فى علاج كل العيوب أو نواحى القصور فى النظام الغذائى للمجتمع (من حيث

كثرة الشرب على الاكل ـ او كثرة اكل النشويات ـ او نقص الخضروات او نقص الفاكهة ـ او الاعتماد على اصناف دون اخرى بشكل مبالغ فيه مما يخلق حالة عدم توازن غذائى .. الخ) . وستكون لتلك المعلومات قيمة كبرى ايضا فى الاتجاه الوقائى من اجل حفظ الصحة العـــامة للمواطنين والارتفاع بمستواها .

ثالثا ـ ملاحظات الباحث الذى يجمع مادة علمية بواسطة هذا الدليل(٥) :

هذه ملاحظات عامة لا يجمعها خط واحد ولا تدور حول قضية بالذات ، ولكنها تستهدف ان تنبه الباحث الميدانى الى بعض النقاط النظرية التى ركزت عليها اسئلة الدليل وقد يجد الباحث ذلك امرا غير مفهوم ، ولذلك قدمنا له بعض الايضاحات . وهناك ملاحظات اخرى تنبه الباحث الى بعض الخطوات او القواعد العملية التى يحسن به الالتزام بها ومراعاتها اثناء عمله الميدانى. وقد يلقى بعضها الآخر الضـــوء على بعض المفاهيم او المصـــطلحات التى استخدمت بشكل مكثف فى اسئلة الدليل ، ولابد من اتضاحها بقدر كاف فى ذهن الجامع ، لكى نضمن ان يسأل عن الموضوعات والظواهر الصحيحة .

١ ـ سيلاحظ الباحث ان اسئلة الدليل قد تركز فى بعض جوانبها على العناصر المـــادية او على الاشياء objects .

فنحن نحاول فى هذه الدراسة تقديم جانب من جوانب عاداتنا وتقاليدنا وقيم مجتمعنا المرتبطة بالطعام . اى اننا لا نسعى الى تقديم دراسة فى الثقافة المادية اى فى الادوات والجانب المـــادى من الثقافة . ولكن القارىء قد يتساءل وهو يطالع هذا الدليل ويقرأ الدراسة : ولماذا اذن ذلك الاهتمام الواضح بأوانى الطهى ومعداته ، وبالفرن ومختلف انواع المواقد ، وبالمائدة ووصفها .. الخ . أليست تلك جوانب مادية واضحة . ولكن الحقيقة التى قد لا يتبينها المرء لأول وهلة هى اننا لن نستطيع ان نفهم العادات والتقاليد والقيم المرتبطة بالطعام ما لم نفهم كل تلك الجوانب المـــادية المحيطة به . فالطعام نفسه ظاهرة مادية . اغذية تعد بأدوات وتقـــدم فى أوانى فوق موائد .. وهكذا . والعادات والقيم المرتبطة بذلك انما هى نظرة تقليدية او مواقف معنوية متداخلة فى تلك العناصر المادية ومرتبطة بها ومنصبة عليها . فتلك الجوانب المـــاديـــة هى الاطار الخارجى للصورة التى نحاول أن نرسمها لعادات الطعام وآداب المـــائدة .

يضاف الى هذا بعد هـــام ، وهو اننا فى دراستنا لتلك الأمور نفتح

لانفسنا سبيلا جديد لمعرفة تيارات التبادل الثقافي، وانتقال العناصر الثقافية — مادية أو غير مادية — من دائرة الى اخرى ومن عصر الى آخر . فرصد حركة تلك العناصر المادية يقودنا مباشرة الى احراز نجاح مؤكد فى رصد حركة التغير الثقافى ومعالمه .

٢ — ويلاحظ الجامع كذلك أن موضوع الخبز يحظى باهتمام أسئلة الدليل ، اذ يعد موضوع الخبز من موضوعات عادات الطعام التى حظيت باكبر قدر من اهتمام الدارسين الانثروبولوجيين الأجانب للمجتمعات العربية المختلفة . كما كانت دراساتهم لهذا الموضوع على اكبر قدر من النجاح والدقة ، والسبب الواضح لتوفيقهم هذا أن العملية تتم بشكل حى مجسد يسهل ملاحظته ، كما يسهل ملاحظة الادوات المستخدمة فيه ، وتوزيع الادوار فى عملية الاعداد ، وسماع الاقوال والادعية التى تتردد عند اعداده .. الخ .

ومنذ القدم وموضوع الخبز يحظى باكبر قدر من الاهتمام فيما يتصل بموضوع الطعام بصفة عامة ، ولعل الدليل على ذلك الدور الكبير الذى يلعبه الخبز فى الطقوس ؛ والمنزلة التى يحظى بها فى الكتابات الدينية ، أو التراث الاعتقادى عند كل شعوب العالم .

على انه ليس هذا الاساس الدينى هو وحده الاعتبار الاوحد فيما يتمتع به الخبز من مكانة فى نظر المعتقد الشعبى . حيث انه كان وما يزال العمود الفقرى للغذاء عند قطاعات ضخمة من الشعب ، وبدونه لا يكون الطعام طعاما ، وبدونه لا يكون هناك اطمئنان من الانسان على استمرار وجوده المادى وقدرته على الحياة .

وقد تدهورت مكانة الخبز فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وظهرت بعض الحركات والدعوات الرامية الى احياء مكانته القديمة ، ودعوة الناس الى العودة اليه .

كما أن سلعة الخبز والدقيق بصفة عامة من السلع التى تتمتع بدعم حكومى فى جميع انحاء العالم تقريبا ، شرقيها وغربيها لتصل الى المواطن العادى بسعر رخيص نظرا لما يتمتع به الخبز من مكانة ، ولأن توفره ورخصه يعد مقياسا لنجاح اى حكم ، خاصة فى البلاد النامية التى أصبحت تجد صعوبة فى توفير هذه السلعة للاعداد المتزايدة من سكانها .

هذا وقد اصبح القمح والحبوب بصفة عامة من السلع الصعبة على المستوى العالمى ، بعد ان عجزت كثير من البلاد النامية عن توفير احتياجاتها

الخاصة من الحبوب ، وبدات تعتمد على الاستيراد من الدول الصناعية المتقدمة . فأصبح القمح وغيره من الحبوب من السلع التى تهدد بها الدول المتقدمة او تلوح بها للبلاد التابعة او الصغيرة لحثها على نهج طريق سياسى معين او تأييد خط ايديولوجى معين . فباتت الحبوب من السلع الصعبة ، بل من اصعبها على الاطلاق .. احتمالات تفاقم هذا الوضع على المستوى العالمى وان تزداد معاناة البلاد النامية من جراء ذلك .

هناك علاوة على هذا بعض الاعتبارات السوسيولوجية التى تبرز اهمية دراسة كل ما يتعلق بالخبز ، نضرب مثالا على ذلك باستخدام كمية الخبز التى يتناولها الفرد العادى فى كل وجبة كمؤشر للوضع الطبقى اليوم (فكلما انخفض هذا الوضع ازداد الاعتماد على الخبز كمكون رئيسى فى الوجبة « والعكس بالعكس ») .

كما ان نوع الخبز المستخدم كان ومازال فى بعض المناطق يعد هو الآخر مؤشرا على الوضع الاقتصادى والمكانة الاجتماعية (عيش السن ، عيش القمح الأبيض . خبز الذرة .. الخ .)

كذلك يلاحظ ان عملية صنع العيش من العمليات المرهقة ولذلك نجد أن كل عملية من العمليات يصاحبها ادعية معينة لتسهل هذه العملية من ناحية . ولكى لا يكون تعب من يقوم بهذه العملية من الاسباب التى تجعله ينقم على من لا يشترك فيها ويأكل دون معاناة .. الخ .

٣ ــ ملاحظات حول ميزانية الاسرة وسياسة الانفاق :

من الاهمية بمكان ان نلقى أكبر ضوء ممكن على بنود ميزانية الاسرة بصفة عامة (لكى نحدد موقع بنود الطعام فيها) وتفاصيل بنود الطعام بصفة خاصة .

ذلك ان دراسة الميزانية بصفة عامة ومعرفة بنودها تعد من المؤشرات الهامة لتحديد الانتماء الطبقى للاسرة ، فالانفاق على اللحوم ، والبروتينات والفواكه يتزايد مع ارتفاع الوضع الاقتصادى والاجتماعى وينخفض بانخفاضه والعكس بالنسبة للخبز فكميته المستهلكة على مائدة تعكس فى تزايدها انخفاض المستوى الاقتصادى الاجتماعى للاسرة والعكس بالعكس .

كما تعد دراسة ميزانية الاسرة وتحديد بنودها من اهم المؤشرات المفيدة فى الوقوف على توزيع الادوار داخل الاسرة ، خاصة بالنسبة للدور

الكبير الذى كان يلعبه الزوج فى الماضى (كعائل الاسرة الوحيد — أو ابناؤه الذكور — معه أو من بعده) ، ثم تعاظم دور الزوجة داخل الاسرة بصفة عامة باكتسابها للتعليم ودخولها ميدان العمل وتحولها الى قوة اقتصادية مؤثرة وازدياد وعى المراة بمكانتها الاجتماعية بصفة عامة (حتى ولو لم تكن قد نالت تعليما أو قدرة على الكسب) .

فقد كانت فى الماضى المجال الوحيد الذى تمارس فيه الزوجة نفوذها داخل الاسرة ، وفرصة تعاملها الوحيد فى النقود ؛ وربما مجال تعاملها مع الباعة أو مع أطراف خارج الاسرة .. الخ .

كما تفيدنا دراسة بنود ميزانية الاسرة الخاصة بالطعام فى تحديد مستوى الوعى الغذائى لدى الشعب بوجه عام ، فهناك شعوب (باكملها وعلى اختلاف مستوياتها الاقتصادية الاجتماعية) تعتمد على النشويات فى الطعام ، واخرى تكثر من اللحوم والبروتينات بوجه عام وهكذا . ولا شك أن الامر لا يتوقف دائما على الامكانيات الاقتصادية وحدها ، وانما يتوقف فى اغلب الاحوال على توفر الوعى الغذائى الصحى السليم .. وهو أمر يجب أن يحظى باعظم الاهتمام من كل مشتغل بالتخطيط للتنمية الاجتماعية الشاملة .

وهناك جدوى علمية فنية على جانب كبير من الاهمية لدراسة ميزانية الطعام ، اذ انها تعكس فروقا واضحة بين المناطق البدوية والحضرية وبين المناطق الريفية والحضرية ؛ لانه من المؤكد أن الصورة العامة لتلك الميزانية تختلف من بيئة الى أخرى ؛ وان هذا الاختلاف ليس راجعا الى ظروف فردية أو عشوائية ، ولكنه نتاج للايكولوجيا ، ولخطوط واتجاهات التجديد الثقافى ولمستوى تطور البادية والريف وتقدم الحضر . فدراسة هذا الموضوع مؤشر ووسيلة للوصول الى تحديد وفهم الفروق البدوية الحضرية والريفية الحضرية ، وسوف نجد علاوة على هذا أن الميزانية تعكس الظروف البيئية بصفة عامة فحضر السواحل بنود غذائهم تختلف عن حضر الداخل وريف السواحل كذلك ، وسكان القرى الواقعة على أطراف الصحراء .. الخ .

٤ — يصادف الجامع كثرة تردد مصطلح اكلات المناسبات والمقصود باكلات المناسبات تلك التى تعد بمناسبة موسم معين كالاعياد ، أو بمناسبة خاصة كميلاد أو زواج أو وفاة ، أو بمناسبة قدوم ضيوف اعزاء لهم مكانة خاصة عند الاسرة . وقد اشرنا الى كل تلك المناسبات بانها أكلات المناسبات ، وعلى الباحث أن يخصص فى كل حالة المناسبة التى يتناول فيها هذا الصنف او ذاك باسمها ويحددها تحديدا دقيقا .

٥ — من المفيد أن يتساءل الجامع عن انتشار القهوة فى دوائر معينة تختلف عن الدوائر التى ينتشر فيها تناول الشاى .

(مثلا : فى بعض المجتمعات يشيع تناول القهوة على نطاق المجتمع كله ، على حين يقتصر تناول الشاى على دوائر اضيق — ربما ذات مستوى اقتصادى اجتماعى أرفع — حيث يتمتع الشاى بدائرة انتشار أوسع ، ويقتصر تناول القهوة بانتظام على دوائر اضيق بين كبار السن ، أو الخاصة ، أو فى مناسبات معينة كالعزاء أو الضيافة بصفة عامة) .

كما أن هذه العلاقة بين مدى انتشار كل من القهوة والشاى ليست ثابتة أو دائمة ، ولكنها تتغير ، بل من الممكن ان يتبادل المشروبان مكانتهما نتيجة ظروف تاريخية اجتماعية معينة . تتبع بالتفصيل عوامل النمو أو الانحسار فى كل حالة .

٦ — الارتداد الى التراث فى بعض المناسبات وفى بعض القطاعات مخالفا بذلك الاتجاه العام لنسيان جوانب كثيرة من التراث وتجاهلها بفعل ظروف التغير الاجتماعى العام : الاتجاه العام للتغير الاجتماعى فى كل ما هو مصنوع باليد ، ومتوارث عن القدماء .. فظروف المسكن الحضرى الضيق وتحول الاسرة الى الشكل النووى ، وتضاؤل القطاع الزراعى (سكانيا وليس اقتصاديا) ، وتحضر الريف ، وانتشار المستحدثات الصناعية ، واشتغال المرأة .. الخ . كل ذلك يبعدنا بوجه عام عن الالتزام بالعادات الشعبية او مظاهر الاحتفال بالمناسبات التقليدية من أعياد واحتفالات وغيرها .

ولكن الملاحظ أن المجتمع يجتاز مرحلة التخلى عن التراث هذه بسرعة ، ويقطع فى فترة وجيزة نسبيا مرحلة الوصول الى الرفاهية (سواء على المستوى الاجتماعى العام او على مستوى طبقى فقط ، وهذا هو الفرق بين المجتمعات الصناعية الغربية التى حققت الرفاهية لشعبها كله ، والمجتمعات الاخرى التى لم تحقق ذلك الا لشريحة صغيرة منها فقط) . المهم أن المجتمع ما أن يبلغ مرحلة الرفاهية ويعيش حياة الامتلاء ، حتى تبدأ تعاوده الميول الرومانسية ، وبحركة الحنين الى احياء الماضى . فنجد تلك المجتمعات تعرف على نطاق واسع ما يعرف بالنزعة الفولكلورية المتطرفة Folklorism نزعة احياء بعض عناصر التراث الشعبى بشكل متعمد ، وربما لاغراض تجارية أو سياحية .. الخ ولكنها تلعب كلها على وتر الحنين الى الماضى واعزازه وتبجيله .. الخ عند الجماهير الريفية .

نلجـــد من تلك المظاهر :

ـــ العودة الى بعض الاكلات الشعبية وانتشارها والتمسك بها ربما بعد تطويرها .

ـــ العـــودة الى الموسيقى الشـــعبية وبعث كثير من الترنيمات اللحنية واستخدام مطالع اغنيات شعبية قديمة فى الاغانى المستخدمة .

ـــ العودة الى تاكيد الاحتفال ببعض الاعياد الشعبية ، والمبالغة فى بعض مظاهر الاحتفال بهـــا ـــ فى مصر مثلا : كالسـيرك الفنى الذى نعيشه فى رمضان أو الفوازير وغيرها وكانما رمضان قد شرع مناسبة للفوازير . والتمثيليات والمسرحيات الهزلية والحفلات الغنائية والسهر حتى الصباح .

ـــ العودة الى بعض قطع الازياء الشعبية وانتشارها ـــ بعد تطوير معين فى القصة والقماش ـــ بين القطاعات العليـــا من المجتمع ؛ كما نرى فى لبس الجلباب البلدى الصوف الانيق وربما العباءة بين كبار القوم فى مصر فى مطلع السبعينات (يصل سعر تفصيل الجلباب الواحد ثلاثين جنيها أو يزيد اى يعادل تكلفة تفصيل بدلة كاملة انيقة) .

٧ ـــ سيصادف الجامع اثناء دراسته بعض اصناف الاطعمة والمأكولات التى كانت تحتل فى الماضى مكانة اجتماعية دنيا ، وينظر النـــاس الى من ياكلها او بالذات من يكثر من أكلها نظرة دنيـــا . ثم حدث تحت وطأة عوامل متباينة أن تغيرت تلك النظرة ، بل نقول انعكست تماما . من تلك الظروف الارتفاع الرهيب فى أسعار المواد الخام التى تعد منها تلك الماكولات ؛ كما لعبت العواطف والمشاعر الرومانسية دورا كبيرا فى الاقبال عليهـــا (فالحضرى يشعر فى تناولها اقترابا من بيئته الريفية ، والمغترب يرى فى الاقبال عليها ردا لحنينه الى وطنه ، والمشتغلون بالســـياحة أصـــبحوا يعتبرونها رمزا للاطعمة الوطنية .. الخ تلك الاعتبارات .

٨ ـــ هناك مجتمعات باكملها او اسر معينة تخلت منذ زمن عن صـــنع الخبز او تربية طيور الذبح او حيوانات الذبح . ولكنهـــا تقلع عن ذلك فى مناسبات بعينها فترتد الى ســـابق عهدها فتصنع مثلا رقاق العيد بالمنزل أو تكلف احدى السيدات التى لديها فرن بعمله بأجر) .. وبالنسبة لخروف العيد يفضل أن نشترى الذبيحة قبل العيد بفترة لعلفه وتسمينه قبل العيد ، فلا يصح أن تشترى اللحم من الجزار مباشرة صباح يوم العيد .

والمعروف أن الاتجاه العـــام للتطـــور فى المجتمع كله يسير فى الاتجاه

المعاكس ، فالناس تشترى الاشياء الجاهزة حتى فى الريف بدأ شراء الخبز الجاهز ينتشر ويتسع ، فما بالك بالارقاق . وكذلك لم تعد امكانيات القطاع الاكبر من سكان الحضر تسمح لهم بشراء خروف خاص بهم (لا يقل عن ٥٠ جنيها ، ويصل الى مائة) ، ناهيك عن وجود مكان لتربيته دون ان يؤثر ذلك على نظافة البيت ، او يهدد وجود الخروف نفسه بتعريضه للسرقة (اذا ما وضع مثلا بسطح المنزل) .

ومن هنا نلفت النظر الى ان الاسر التى تعود — برغم هذا الاتجاه العام للتطور — وترتد الى التراث مرة أخرى ، انما تثبت لنفسها ولنا مكانة تلك المناسبات فى نفوسها . ويكون ذلك الارتداد الى الماضى تأكيدا منها لتمسكها باحياء تلك المناسبة .

٩ — الاسرة الممتدة المعدلة واكلات المناسبات والاجازات :

سيصادف الجامع مصطلحى الاسرة النووية والاسرة الممتدة داخلة فى كثير من اسئلة الدليل . ولذلك يجب الانتباه الى مدلول كل مصطلح بدقة ، والا جاءت المعلومات بعيدة عن الحقيقة ، مستحيلة على المقارنة ، ذلك ان توحيد المفاهيم لدى الجامعين ضمان لنجاح البحث وضمان للوصول الى معلومات مقننة وموحدة . الاسرة النوويةفى ابسط تعريفاتها هىالاسرة الزواجيةالتى تقوم على الزوج والزوجة وأولادهما المباشرين ، أما الاسرة الممتدة فهى تلك التى تضم عددا من الاسر النووية تجمعهم صلة قرابة فى خط الذكور مثلا اى ان يزوج الرجل — رب الاسرة الكبير — ابناءه الذكور ، ثم يسكنهم معه فى البيت الكبير ، ويعيشون حياة مشتركة . وقد يشتركون فى المسكن وفى الطعام وفى الميزانية .. الخ . ويمثل هذا الشكل الصورة النمطية لهذا النوع من الاسرة حيث يتكفل رب الاسرة — سواء كان والد ارباب الاسرة النووية المشتركة او اخاهم الاكبر — يتكفل بتدبير امور المعيشة ورسم الميزانية ، فالكل يعمل فى ارض الاسرة وهو الذى تتجمع عنده كل دخول الاسر المشتركة فى الاسرة الكبيرة ، ومنها يتولى الانفاق على الجميع لكل حسب حاجته.وهناك فيما عدا هذا اشكال وسط بين الاثنين ، او صور معدلة من هذه او تلك ، (راجع علياء شكرى وآخرون الاسرة ومشكلاتها ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٤) .

ونريد من الجامع ان يلاحظ ان مناسبة الاعياد والاجازات تمثل فرصة ينتهزها راس الاسرة الممتدة لكىيجمع شملافراد الاسرة ، ليس شرطا فى

خط الرجل أو فى خط المراة ، وذلك عن طـــريق اقامة وليمة منتظمة فى ايام الاجازات او فى الاعياد وعلى فترات دورية اطول من الاسبوع .

وتعد تلك المناسبة فرصة التقاء افراد الاسرة فى الحضر ، حيث ان ظروف اشتغال الرجل والمراة لم تعد تتح فرصة الزيارات المنزلية بكثرة ، كما ان المراة اصبحت تستشعر الحاجة الى الراحة ايام الاجـــازات ، فمثل هذه الوليمة مناسبة لتحقيق ذلك .

وقد تساهم تلك الولائم من ناحية اخرى فى احياء التراث فيما يتعلق بميدان الطعام ، حيث تحرص الام — ســـواء بمبادرة منها او بطلب من أولادها — على اعداد الاصناف الصعبة المعقـــدة التى لم يعد وقت المراة العاملة يسمح لهـــا باعدادها ايام الاسبوع العـــادية . وبذلك تظل تلك الاصناف (كالمحشى بأنواعه — الفتة بشكلها التقليدى — البصارة — الرقاق — الحمام المحشى .. الخ) ، حية فى ذاكرة الاجيال الجديدة « الاحفاد » .

هل تساعد هذه الظاهرة على تشجيع الاتجاه العـــام الذى اشرت اليه من الصورة الى الاسرة الممتدة بشكل معدل ، وتوثيق الروابط من جديد بين الاسر النووية التى استقلت عن اسرة واحدة ممتدة فى الماضى (٦) ؟ .

كذلك يمكن أن تتم تلك الظاهرة على نحو آخر فى حالة ما اذا كانت الاسرة الكبيرة ما زالت تعيش فى الريف ، فينتقل الابناء أو البنـــات بأسرهم الى القرية فى المناسبات (الاعياد أو الاجازات الصيفية) لتتحقق نفس فرصة اللقـــاء . وبذلك يصبح الطعام والاستضافة فى الريف محورا لتجديد جمع الشمل .

كما نلاحظ علاوة على هذا ان الوجبات كانت تمثل فى المـــاضى (وفى الريف حتى عهد قريب) مناسبة التقاء كل افراد الاسرة ، ومع انتشار التعليم أصبح الاولاد يبكرون فى الافطار والغذاء والعشاء احيانا ، وبالتدريج لم تعد الوجبات تمثل مناسبة التقاء افراد الاسرة معا .

واقتصرت وظيفة الوجبـــات فى تجميع أفراد الاسرة على وجبات ايام الاجازات او وجبات المناســـبات (الولائم) . هل يعنى ذلك ان تتحـــول وجبات ايام الاجازات الى ولائم او يلقى اعدادها اهتماما خاصـــا من ربة البيت ؟

١٠ — لابد ان يأخذ الجامع فى اعتباره أن دارس عادات الطعام وآدابه

المـــائدة يمكن أن يصادف بعض العقبات . وهى لا تزيد عن كونها صعوبات — قد تزيد عمله صعوبـــة — ولكنها لا يمكن ان تحـــول بينه وبين تحقيق اغراضه من دراسته . ومن هذه العقبات أو الصعوبات ان اغلب النـــاس العاديين يعتقدون أن هذا الموضوع من الامور التى لا مبرر لدخولها فى نطاق البحث العلمى . فما هو الشىء المثير فى معرفة تفاصيل طعام الناس وشرابهم وكيفية جلوسهم الى الطعام ، وكيف يعدون « السلطة » ، وهل يغسلون أيديهم قبل الاكل أم لا .. الخ . وتشبه هذه الصعوبات تلك التى واجهت رواد دراسة الاسرة فى حقل علم الاجتماع . حيث اعتبر الناس فى ذلك الحين ان امور حياتهم الاسرية من شئونهم الشخصية التى لا تهم سواهم ، وليست لهـــا اى دلالة أو قيمة علمية معينة . وتذليل تلك الصعوبة يتم عن طريق ايضاح اهداف الدراسة وان البحث العلمى يكشف وراء تلك التفاصيل وهذه الخصوصيات بعض الملامح العامة التى ستكون لهـــا قيمتها فى فهم الحياة الاجتماعية لاولئك الناس فهما افضل ، وبالتالى تخطيط تلك الحيـــاة على نحو أكثر كفاءة كما قد ترى الاسرة — حتى لو قبلت مبدأ البحث — أن هناك بعض الامور التى لا يحق للباحث السؤال عنها لانها من أسرار البيت كالسؤال عن كميات الطعام وتوزيعها .. الخ .

كما أن الباحث الرجل فى هذا الموضوع سوف يجد حوله كثيرا من التعليقات التى تسخر من اهتمام رجل بموضوع يدخل فى دائرة اهتمام النساء . وهل يصح لرجل أن يسأل عن طرق طهى الطعام وترتيب المـــائدة .. الخ . والرد على ذلك ان البحث العلمى المتقـــدم لا يعرف اليوم تفريقا بين الرجل والمراة ، لان القضية منهج ، واهداف علمية نضعها نصب اعيننا ، واذا التزمنا بهـــا فان الرجل يستطيع أن يحصل على نفس الثمرة كالمراة تماما .

كما سيعتقد كثير من الناس أن بعض الآداب والقواعد السلوكية التى تسأل عنها فقرات الدليل تمثل السلوك الامثل او السلوك المتحضر ، ومـــن ثم يود أن يجيب عن تلك الاسئلة بالايجاب فى كل حالة لكى يظهر نفســـه بمظهر المتحضر . فيتصور ان الاكل بالشوكة والسكينة من الامور التى يجب أن يتحلى بهـــا ، مع أننا نعرف أنها عادات غريبة واغدة على ثقافتنا ، وان ممارستنا لهـــا ليس مقياسا للتحضر الحقيقى ، كما أن تركها ليس دليلا على التخلف .

سوف يواجه الباحث كذلك صعوبة العثور على اطلة حية على بعض أصناف الطعام او الشراب ، خاصـــة تلك التى اختفت ، فربما كانت تلك الاصناف تصنع من مواد مستوردة من خارج البيئة ، أو من مواد كانت تزرع

فى البيئة ثم لم تعد كذلك . ثم ان الناس الذين كانوا يمارسونها بأنفسهم ربما لا يكونون على قيد الحياة ، أو ليس من المتاح للاخبارى لقاؤهم ، مثل تلك الاصناف سيكون من المستحيل على الباحث ان يجمع ادلة حية على تلك المواد .

يرتبط بتلك المشكلة صعوبة أخرى وهى ان الباحث قد يتحتم عليه فى بعض الاحيان أن يحكم على بعض الاصناف برؤيتها أو حتى بتذوقها وبدون هذا لا يستطيع أن يقدم لنا وصفا دقيقا لشكلها او لمكوناتها . وتلك مشكلة تقلل ولا شك من كفاءة البيانات الميدانية ، ولكن من الممكن علاجها من سبيل آخر ، بالوصول الى الاخباريين المناسبين الذين يمكنهم تقديم بيانات دقيقة موثوق بها . وان كان تحقق ذلك التذوق المباشر يجعل للمادة الميدانية درجة من اليقين والدقة يستحيل أن تتصف بها أى دراسة أخرى .

ومن الصعوبات الهامة أن طرق اعداد الطعام قد تتنوع تنوعا شديدا من أسرة الى أخرى ، ومن بيت الى آخر داخل نفس المجتمع المحلى ونفس المستوى الاجتماعى الاقتصادى . الامر الذى يجعل من الصعب التوصل الى تنميط عام يمكن وصفه بعبارات محددة وموحدة . فالكنافة على سبيل المثال يمكن ان تختلف طرق اعدادها اكبر الاختلاف من أسرة الى أخرى . وقد تعرف الاسرة الواحدة عدة طرق لاعدادها . تعدها تارة بهذه الطريقة ، وتارة بطريقة اخرى . لان هذا يعجب البعض ، وذلك يعجب البعض الآخر .. وهكذا .

والوجه الآخر لتلك المشكلة ان نجد داخل المنطقة الواحدة تنوعا شديدا فى أصناف الطعام : أو قل فى « ثقافات الطعام » . فهناك أصناف ترجع الى أصول تركية ، وأخرى ترجع الى أصول أوربية ، وثالثة ترجع الى أصول آسيوية .. الخ . ولذلك يحتار الباحث فى اختيار الطريقة أو الاصناف التى تعتبر نمطية Typical أو ممثلة لهذا المجتمع . والمثال الواضح على هذا الموقف بيئة المنطقة العربية (الحجاز) ــ خاصة جده ومكه والمدينة ــ حيث نجد تنوعا كبيرا فى الثقافات الغذائية ، أولا بسبب تنوع الاصول السكانية من ناحية ، ومن ناحية اخرى بسبب وجود الحجاج لفترات طويلة (متمثلة فى بقايا الحجاج) الذين يمكثون بعد قضاء الفريضة (فى الماضى طبعا) ويجلبون معهم الوان طعامهم الوطنية ، ويمارسونها فترة طويلة ، فتطول فترة « العرض » أو التقديم التى يقدم فيها هذا الطعام نفسه الى السكان المحليين . ومن الطبيعى بعد هذا أن تجد بعض الاصناف هوى فى نفوس السكان المحليين ، ويتبنونها ويعتبرونها جزءا من طعامهم وبمرور الوقت يتعذر معرفة الاصيل من الدخيل . وقد يزيد الموقف تعقيدا أن يحدث تطعيم

او مزج بين القديم والجديد ، وتتكون أصناف جديدة هى ثمرة امتزاج ثقافتين ، ولم تكن بصورتها تلك موجودة فى أى بيئة قبل ذلك . مما يزيد صعوبة التحليل التاريخى ، وصعوبة عملية التنميط .

تلك نماذج من الصعوبات التى يمكن ان تصادف الباحث فى عادات الطعام يمكن ان نسترسل فى عرضها ، ولكن يكفى ان ناخذ فى المرحلة الحالية فكرة اولية عنها . وقد يجد الباحث أن بعضها لا يمثل مشكلة بالنسبة له ، كما قد تبرز امامه صعوبات جديدة لم نتطرق اليها فى هذا العرض السريع وحسن اختيار الباحث لموضوعه ، وحسن اختياره للاخباريين ، ولباقته واخلاصه لدراسته . . كل ذلك كفيل بنجاحه فى تحقيق كل اهدافه من الدراسة والوصول الى النجاح المنشود .

١١ — من المفيد ان يستعين الباحث بكتب الطهى الموجودة ، ليس حبا فى دراستها فى ذاتها ، فهذا بعيد عن مجال اهتمامه ، وانما لكى يتتبع دورها وتأثيرها على ثقافات الطعام فى البيئات التى تعيش فيها . ولذلك تمثل كتب الطهى أحد مجالات الدراسة الهامة للمهتم بهذا الموضوع. هذا مع ادراكنا الواضح أنها ليست دراسات ، وليس لها أى طابع علمى ، ولم يستهدف اصحابها الاسهام فى مجال العلم . الا أننا ندرك مع ذلك الدور الذى تلعبه على محورين :

الأول : الاسهام فى نقل تراث الطعام وبعض الاصناف والاكلات وبعض طرق الطهى الى الاجيال الجديدة مستفيدين بوسائل الاتصال الحديثة ، حيث اصبح الكتاب يخرج مزودا بعشرات ومئات الصور — العادية والملونة — وتطبع منه عشرات او مئات الآلاف ، فيصل الى دوائر اوسع من وسائل الاتصال او الانتشار التقليدى ، متجاوزا بقوة الحدود المحلية الضيقة لانتشار الصنف او الطريقة فى الماضى .

الثانى : الاسهام بأكبر دور فى تطوير التراث فى هذا الميدان . وذلك باقتراح افكار أصناف جديدة ، وابتكار طرق طهى مستحدثة ، وذلك سواء من ابتكار صاحب الكتاب او صاحبته ، أو نقلا عن مطبخ شعب آخر . وفى جميع الاحوال تعمل كتب الطهى فى هذه الناحية على احداث ثورة بعيدة المدى بطيئة الايقاع عميقة الجذور فى ميدان اعداد الطعام وتزيين المائدة .

١٢ — لابد أن يولى الجامع أكبر اهتمامه بمراعاة الابعاد الثلاثة — الزمنية او التاريخية والجغرافية والاجتماعية — للبيانات التى يجمعها .

فاذا كنا سيمعنا مثلا أن الكبابة تمثل اليوم صنفا هاما على موائد الدلعام . فلابد أن نسأل عن مكانة هذا الصنف فى الماضى (البعد التاريخى) ، وعن اختلاف هذه المكانة بين المجتمعات المختلفة او بين البادية والحضر أو الريف والحضر (البعد الجغرافى) ، واختلاف تلك المكانة بين المستويات الاجتماعية المختلفة كالطبقات والمهن وفئات العمر .. الخ . (البعـــد الاجتماعى) . (انظر علم الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢ حيث تجد عرضا لتلك الابعاد المختلفـــة) .

والمتوقع من الجامع أن يهتم بربط كل معلومة يحصل عليها بهذه الابعاد الثلاثة دون أن يطلب منه ذلك صراحة . ولكن الجامع سيلاحظ اننا برغم هذا التأكيد قد طلبنا صراحة فى بعض الاسئلة الاهتمام بالبعد التاريخى ، أو بالبعد الطبقى الاجتماعى . وذلك فى الحالة الاولى بالنسبة للظواهر التى تكشف ابعـــاد التغير ومعالمه واتجاهاته . وفى الحالة الثـــانية بسبب أهمية الملاحظة الكبرى فى ارتباط آداب أو قواعد أو أصناف معينة بجماعة أو مستوى اجتماعى معين . ففى مثل هـــذه الاسئلة ليس الهدف هو الحصـــول على المعلومات فى ذاتها ، بقدر اهميتها فى تحليل التغير ، او التحليل الاجتماعى .

ويلاحظ الجامع بصفة عامة أن الاتجاه العام الذى تتبناه هذه الدراسة والذى على اساسه صيغت كل اسئلة الدليل هو الاتجاه الجماعى ، ومن ثم يتوقع منه ان يولى البعد الاجتماعى الاهتمـــام الواجب دون ان يطلب منه ذلك .

١٣ — بالنسبة لمفهوم أو تعبير « مائدة الطعام » الذى ورد فى عديد من الاسئلة ، فلابد ان يدرك الجامع اننا لا نقصد المـــائدة كمنضدة او طاولة يوضع عليها الاكل ، وانما نقصد جلسة الطعام نفسها ، أو الوضع الذى ترتب به اصناف الطعام أمام الاكلين . اذ من الطبيعى اننا لا نفترض أن كل النـــاس يتناولون طعامهم على مائدة او على منضدة .

المراجـــع والهوامش

(١) انظر مزيدا من تفاصيل هـذا التعريف ومناقشة لجوانبه المختلفة عند : محمـد الجوهرى ، علم الفولكلور ، دراســة في الانثروبولوجيا الثقافية ، دار المعــارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ ص ص ٦٤ — ٦٥ وكذلك ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ببليوجرافيا الفولكلور العربى التى ساهمت كاتبة هذه السطور في اعدادها ، مصادر دراسة الفولكلور العربى ، قائمــة ببليوجرافية مشروحــة ، اشراف د . محمـد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، حيث يتضمن قسم عادات الطعام عديدا من المؤلفات حول عادات الطعام بعضها من كتب التراث ومن الدراسات المعاصرة على بعض البيئات العربيــة .

(٣) تمت كاتبة هذه السطور باجراء مجموعة من الدراسات الميدانية المركزة لعـادات الطعام وآداب المائدة في عدد من المجتمعات المحلية في منطقة الحجاز وذلك خلال عامى ١٩٧٨/٧٧. وسوف أوالى نشرهــا تباعا باذن الله . انظر الاشـارة اليها في : علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافي في الوطن العربى ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .

(٤) انظر كل التفاصيل المتعلقة بهذا الأسلوب من التحليل عند : محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، مرجع سابق — الفصل الحادى عشر ، الاتجاه الاجتماعى والسوسيولوجى .

(٥) وضعت كاتبة هذه السطور دليلا مفصلا لدراسة عادات الطعام وآداب المـائدة في البيئات العربية يتضمن حوالى ٣٥٠ سؤالا تنطرق الى كل جزئية من جزئيات تلك الممارسات الشعبية ، والهدف منه أن يتيح أداة موحدة للدراسة يمكن أن تيسر عملية المقارنة فيما بعـد .

(٦) انظر : علياء شكرى ، الأسرة النووية والتصنيع ، فصل في الكتاب التالى : السـيد الحسينى وزملاؤه ، دراســات في التنمية الاجتماعية ، الطبعــة الثالثة ، دار المعارف ، القاهــرة ، ١٩٧٧ .